عبدالله الرويتع

المفكر والمعايشة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
• المحتويات	٥
• الإهـــداء	٧
• المقدمة	١١
• الفصل الأول: الفكرة والمعايشة	١٥
(١-١) الفكرة وأبعادها	١٧
(١-٢) أنواع الفكرة	٢٣
(١-٣) تقويم الفكرة	٣١
(١-٤) المعايشة	٤٣
(١-٤-١) وصف المعايشة وأنواعها	٤٣
(١-٤-٢) المعايشة والمفكر	٥٠
(١-٤-٣) المعايشة والوجود	٦١
(١-٤-٤) المعايشة والترميز	٧٥
(١-٥) تعليق المعايشة والتعلم	٧٩

الموضوع	الصفحة
• **الفصل الثاني: الفكرة والانتماء**	٨٩
(٢-١) مقدمة	٩١
(٢-٢) الإيمان والانتماء	٩٣
(٢-٣) نشر الفكرة والتتلمذ	١٠٥
(٢-٤) فقد الإيمان والانتماء	١١٠
(٢-٥) أنواع الاتصال أو التفكك	١١٤
(٢-٦) تعليق: المرحلة اللاأدرية	١١٨
• **الفصل الثالث: المعايشة ومفاهيم نفسية**	١٢٥
(٣-١) المعايشة والانفتاح على الخبرة	١٢٧
(٣-٢) تعقيب عام	١٣٢
• **المراجع**	١٣٧

مُقَدِّمَة

على قدر وضوح واكتمال الإدراك يتوقف صواب الحكم، فكلما كان الإدراك ناقصاً أو مشوشاً كان الحكم بعيداً عن الصواب موغلاً في الخطأ المضلل.

وهذا ينطبق وبشكل كامل على الفكرة، فما الإنسان سوى أفكار تسيِّره وتسيِّر حياته بشكل مباشر أو غير مباشر، وكل ما أنجزه الإنسان وينجزه ليس سوى نتاج العقل المتمثل في الفكرة.

ولكن ما الفكرة؟ وهذا السؤال هو ما نحاول الإجابة عنه في الصفحات القادمة، إلا أن هذا ليس بؤرة أو محور الموضوع، بل إن ذلك ليس سوى البداية. إن جوهر الموضوع هو ذلك الإدراك الناقص لجوانب الفكرة. فالفكرة حتى الآن لا يُرى منها تقريباً سوى جانب واحد مما جعل الخطأ يتسرب إلى كل ما بُني على تلك الرؤية. ولقد بُني عليها أمور كثيرة عظيمة من أبسط شؤون الإنسان إلى أكبرها.

ويبدو أن الجانب الوحيد الذي يرى في الفكرة هو بناؤها العقلي، أو بمعنى آخر ما تحتويه من تكوين عقلي أو بناء فكري. بل إن بعضهم يذهب إلى أن توضيح الجانب المنطقي من الفكرة كفيل بأن يحل أي لبس أو غموض في

المعنى*. إلا أن هنالك جانباً مظلماً في الفكرة لم يُر، وليس لأنه عديم الأهمية، بل لأن الإدراك قد قصر عنه فيما يبدو. وإدراك الشيء بوضوح ليس معياراً لأهميته، بل إن كثيراً من الأمور المهمة يصعب إدراكها بسهولة. وذلك الجانب المظلم المنسي من الفكرة هو الأهم بحق في الفكرة، بل إنه الخط الفاصل ما بين حياة الفكرة وموتها، وجودها أو عدمها، ما بين الإيمان بها وعدم ذلك... الخ.

وذلك الخط الفاصل أو الجانب المظلم هو معايشة الفكرة. وما المعايشة إلا الانطلاق من المكوّن الأول للفكرة وهو السؤال إلى المكوّن الثاني وهو الإجابة، وأخيراً المكوّن الثالث وهو البرهان لتكتمل الفكرة.

هذه هي المعايشة ببساطة شديدة. فهي أن يعيش الفرد مع الفكرة أو تعيش معه من بدايتها إلى نهاية تكوينها مع الشرط الفاصل وهو كون ذلك على يد الفرد نفسه، أي تكون تلك الفكرة على يد الفرد وليس بمعونة الآخرين. ومن هنا أطلقنا عليها (معايشة).

والمعايشة هي يقظة الفرد وبحثه عن الإجابة والبرهان وبنفسه. وهي بهذا تمثل الأنا مقابل الآخرين، تمثل الإنتاج مقابل الاستهلاك الغبي، الفعالية مقابل الخمول، العطاء مقابل الأخذ... الخ.

ومن خلال معايشة الفكرة نقتحم عالماً آخر لا نجده عندما لا نرى سوى البناء العقلي، فنرى عالماً يهز المعايش للفكرة هزاً، يصدمه، وهو عالم الوجود الحقيقي للفكرة، والإيمان والانتماء، عالم المعنى والقوة، وعالم الإحساس بالوجود بالنسبة إلى الفرد كذلك.

وهذا غيض من فيض مما يجده المعايش، وهو ما نحاول شرحه وتقديمه للقارئ آملين أن يرى هذا الجانب المهم في الفكرة.

---

* وهذا ما ذهب إليه أولاً فتجشتين، وانتهت إليه الوضعية المنطقية.

وسعياً وراء هذا الهدف فإننا قسمنا ذلك العرض أو الشرح إلى ثلاثة فصول:

ففي الأول تمّ تحديد أبعاد الفكرة وتقويمها وأنواعها. وفي هذا نضع — وعلى عجالة — الأسس اللازمة للدخول إلى الموضوع الرئيسي، وهو المعايشة، والذي يتلو تلك المواضيع، حيث يتم توضيح مفهوم المعايشة وبشكل أكبر من خلال بعض المفاهيم ذات العلاقة الكبيرة به كالمعايشة والمفكر، والوجود والترميز.

وفي الفصل الثاني نورد فعالية المعايشة أو نتاجها من خلال كونها تؤدي إلى الإيمان والانتماء والمعنى والقوة للفكرة، كما ينعكس ذلك على الفرد.

وفي تسلسل لذلك الإيمان والانتماء — وكأننا نتعقّب المعايش — نرى ما يتم بعد ذلك، وهو ما يتجسد في نشر الفكرة والتتلمذ، وبعد ذلك فَقْد الانتماء، ومنه نخرج إلى سبب التفكك أو عدم التواصل الحقيقي من خلال استعراض أنواع التواصل وشرحها وعلاقة ذلك بالمعايشة.

هذا باختصار ما يتضمنه هذا الكتاب الذي سيقودنا الحديث فيه عن المعايشة إلى التطرق لقضايا عديدة تتفتح أبوابها، تدعونا إلى اقتحامها وسيكون ذلك ولو جزئياً، علماً أن بعضها سيفرض نفسه من خلال مفهوم المعايشة. ولكن هذا المفهوم سيلقي بظلاله على مواضيع شتى عند وضعه بجانب البناء العقلي للفكرة. ومن تلك المواضيع الحرية والأخلاق وفلسفتها... إلخ.

وهذا في مجمله إنما يشير إلى أهمية ذلك الجانب المنسي في الفكرة (أي المعايشة) والتي تقف خلف كثير من المفاهيم، والتي يبرز من خلال غيابها مشكلات عديدة.

وختاماً بودّنا أن نشير إلى بعض الملاحظات فيما يخص تلك الفصول:

* فما نحن بصدده الآن إنما هو نتاج ملاحظات عديدة، حاولنا — بقدر الإمكان — صهرها صياغة في بوتقة واحدة. وقد يتضح، أو يلاحظ بعض

القفزات في بعض المواقع لذا كان من الأجدر التنويه بذلك.

* بالنسبة إلى الفهرسة فقد تمت إعادتها عدة مرات محاولين جعل الموضوع يمتد كخط مستقيم له بداية ووسط ونهاية أو كبناء يبدأ من الأساس ثم تعلو البقية، إلا أنه لترابط الموضوع بشكل كبير فإنه يصعب معه افتراض نقطة بداية مثالية. وكلما تمّ ذلك وجدنا أن هناك نقاطاً عديدة تضيء فيما هي في الوسط أو النهاية حسب ذلك البناء وهكذا.

لذا لم نستطع البدء بنقطة نقول: إنها فعلاً البداية، ثم يتلو ذلك الولوج في الموضوع بعمق متدرج، بل إننا ومنذ البداية في عمق الموضوع.

* وإفرازاً للنقطة السالفة كذلك يلاحظ تكرار عدة كلمات مثل: كما أوردنا سابقاً، كما سلف، كما أشرنا، كما سنورد لاحقاً... إلخ.

ونودّ الإشارة إلى أن تسجيل الأفكار وصهرها تمّ بشكل تلقائي، وإن أعيدت الفهرسة عدة مرات. وكثيراً ما كان ينطلق القلم خارجاً عن السيطرة عاكساً الفاعل والمفعول به، ولا تستعاد السيطرة إلا بعد أن يكون قد قطع مسافات طويلة. لذا ومحاولة منا لربط الموضوع كثر استخدام تلك الكلمات أيضاً.

* يلاحظ أن التهميش أو التعليق موجود بكثرة — إلى حدّ ما —، وذلك — فيما يبدو — يعود لعلاقة الموضوع بمواضيع عديدة. ثم إن هنالك ملاحظات عامة لم نشأ استبعادها فقد يكون لإيرادها فائدة.

ختاماً، نتمنى أن تكون الفكرة واضحة مع إيماني بأن من لم يعايش الأفكار التي سنوردها، فلن يفهمها حقاً ومن ثم، لن يقدرها.

وعلى أي حال هي محاولة قد يكون لها فائدة في توضيح بعض الأمور التي يقف على رأسها المكوّن الأكثر أهمية في الفكرة: المعايشة.

الفصل الأول
الفكرة والمعايشة

(١-١) الفكرة وأبعادها.

(١-٢) أنواع الفكرة.

(١-٣) تقويم الفكرة.

(١-٤) المعايشة.

(١-٤-١) وصف المعايشة وأنواعها.

(١-٤-٢) المعايشة والفكر.

(١-٤-٣) المعايشة والوجود.

(١-٤-٤) المعايشة والترميز.

(١-٥) تعليق: المعايشة والتعلم.

ربما هذا ما يمكن قوله حول المعايشة والتي هي المفهوم المهم فيما نحن بصدده. وقد لا يكون الآن واضحاً بشكل جيد، ولكن قد يتضح عند ذكر الأجزاء القادمة التي لها علاقة بهذا المفهوم، وعلى رأسها المعايشة والمفكر وهو الجزء القادم حيث سنستعرض بعض نماذج المعايشة، أو بمعنى آخر نعيد شرح مفهوم المعايشة ونتعرض كذلك لأبعاد الفكرة، مما يجعل الجزء القادم أرض الأمثلة الموضحة لتلك المفاهيم.

(١-٤-٢) المعايشة والمفكر

تتضح المعايشة أكثر ما تتضح لدى المفكر، بدأ من يقظة سواء كانت تلك اليقظة شاملة لكل شيء أو جزئية في جانب معين. تلك اليقظة تغير في العين التي تبصر والأذن التي تسمع... إلخ. تغير ليس في طبيعة ما يرى إنما وراء ما يرى، فالأشياء التي تُرى عادية لا شيء يسترعي الانتباه لها تتحول إلى ألغاز ويبدأ المفكر يرى فيها أشياء دقيقة لم يكن يراها من قبل (بصيرة لا بصراً). وتلك اليقظة تدفع في الفرد الجدية أو لنقل الأهمية في المعرفة في فكّ تلك الألغاز والبحث عن الإجابة بنفسه، حيث ينبذ مبدأ السذاجة وتلقي الإجابات من الخارج بسذاجة الأطفال، وتقويمها وفق القائل أو الطريقة أو الرغبة حيث تكون هذه هي البرهان. إن المفكر يترفع عن هذا وبشكل خاص رغباته*، إنه يسمو فوقها ويسيطر عليها، ولا يقوِّم الفكرة إلا وفق شموليتها وصدقها (آخذين بعين الاعتبار معايشته لها). لذا لا تقوده سوى القيم الكبرى الشاملة حيث ينتهي إليها في تساؤلاته.

ربما هذا هو مشوار الفكر باختصار، إلا أنه لا يصل إلى تلك المرحلة ما بين

---

* نتحدث عن المفكر الأصيل وعلى قدر أصالته يكون نصيبه من تلك الصفات وما يليها، أي إن المتغير هنا أو الفرق كمي وليس كيفياً أو نوعياً.

اليقظة والتساؤل إلى السمو إلا بصعوبة وقد يسقط قبل أن يصل. وعندما يصل فإن طريقاً طويلاً من المعاناة وأشواكاً كثيرة وصعوبات جمة يكون قد عاناها ومشى عليها وتخطاها، وهي أشواك من الحيرة والألم النفسي والفكري، وأشواك من النبذ الاجتماعي وربما التصفية أياً كانت طريقتها.

ولعلَّ أمر ما يلاقيه المفكر أو الفرد المعايش (على قدر المعايشة) هو الشك أو الدهشة الأليمة أو الاستغراب وجميعها نتاج اليقظة. فالمفكر يستيقظ على أجوبة بداخله أو لنقل أقاويل لم يسألها، لم يطلبها وإنما وضعت بداخله رغماً منه ومن دون برهان، فقد وضعت بالقوة، بالانفعال، لا بالمنطق، فأصبح فيما بعد الابتعاد عنها يثير الشعور بالذنب (أياً كان موضوع هذه الأجوبة)، أو لنقل الخوف من النقد أو النبذ. لذا فالمفكر يعيد إلقاء أسئلة تلك الأجوبة من جديد. وحتى لا يترلق المفكر إلى أقاويل أو أفكار أخرى فإنه يشك في كل شيء حتى في إدراكه. فهو يضع عقله من ضمن ما يشك فيه. فهو شك العقل في إمكاناته (ليس دائماً وليس لدى كل مفكر). وهو فحص للعقل وللذات، يفحصها بدقة. وتتجلى هذه الموضوعية والجدية لدى المفكر فقط، فهو يخطئ نفسه ويريد التأكد منها قبل كل شيء، ثم ينطلق إلى الخارج مسلماً بالثقة بما يملك. وهذا لا نجده لدى العامة التي تُخطئ دائماً الآخر.

وذلك الشكل أو تلك الأسئلة الداخلية لا تدع شيئاً إلا وتتطرق إليه — لذا كان التشبيه باليقظة — حيث يصحو الفرد من سبات ليفحص نفسه من الجزئي إلى الشامل. فقد يسأل بعد صحوته تلك: لماذا أضحك إذا سررت؟ وما الضحك أصلاً والسرور؟ ما هذه التي أمدها؟ (وهي يده). ويتأمل في كل جزء من جسمه ومن حوله (ليس كل المفكرين)، ثم ينطلق ببصره إلى المواضيع الأخرى حوله ولا يرضى بأي إجابة؛ كما يقول سقراط: «فلقد كانت طبيعتي تطالبني بألاّ أقبل أي نصيحة يبديها أي من أصدقائي ما لم يدلل التأمل على أنها

أفضل نهج يعرضه العقل» (أفلاطون، بدون، ص ٨٣). علماً أن رحلة البحث عن الإجابة ليست سهلة في الأسئلة الأولى الموجهة إلى الذات والتي تتناول الأسس، فالسؤال يقظة ولكنه حيرة كذلك، تتناسب الحيرة مع حجم السؤال، فكيف بها وهي تتطرق إلى حياة الفرد كلها. فقد يقفل بعضهم راجعاً من وطأة تلك الأسئلة التي قد يصل بعضها إلى شك الفرد في وجوده وفي يقظته. فقد يقول إن ما يحياه ليس سوى حلم، فإذا كانت صور الحلم تأتيه كالواقع، فكيف يعلم أنه في يقظة وليس في حلم. وهذا ما ساور ديكارت فهو يقول في تأملاته: «ليس هنالك أمارات يقينية تستطيع بها أن تميز بين اليقظة والنوم تمييزاً دقيقاً، فيساورني الذهول، وإن ذهولي لعظيم، حتى إنه يكاد يصل إلى إقناعي بأني نائم» (ديكارت؛ ١٦٤١/١٩٥٦، ص ٨٠). وأمام هذه الأسئلة الداخلية الملحة يصور ديكارت – بنفسه – مشقته وعناءه في تأمله الأوّل عندما أراد اقتحام ذلك العالم الواسع عالم الصحوة واليقظة، وعدم الاكتفاء بإخراج الرأس من الكهف بل الانطلاق لاستكشاف المجهول. يقول ديكارت مصوراً ذلك: «لكن هذا المطلب شاق كثير العناء، وشيء من الكسل يسوقني، دون شعور مني إلى الرجوع إلى مجرى حياتي المألوفة ومثلي في هذا كمثل عبد ينعم في المنام بما شاء له الخيال من حرية، فإذا به يفطن إلى أن حريته تلك ما هي إلا أضغاث أحلام، خاف أن يصحو من نومه وطاب له أن يمالئ هذه الأوهام اللذيذة كيما يطول أمد انخداعه بها، كذلك الحال: أنساق من تلقاء نفسي ودون وعي مني. إلى تيار آرائي القديمة، فأحاذر أن أصحو من غفوتي هذه خشية أن أجد اليقظة الشاقة التي تعقب هذه الراحة الهادئة غير كافية لتبديد الظلمات الناشئة مما أثير الآن من صعوبات ولا مجلية لي قليلاً من ضياء وقليلاً من نور يهديني في معرفة الحقيقة» (المرجع السابق، ص ٨١).

وقد يقول قائل: لماذا هذا التعب؟ لماذا المشقة؟ لماذا لا يريح الفرد نفسه بعيداً عن هذه التساؤلات الغريبة المملة؟ والتي تجعل الفرد يلقي أسئلة غريبة مثل: هل أنا مستيقظ أم لا؟ هل أنا موجود فعلاً؟ وغير ذلك.

وقد يكون ذلك صحيحاً لو كان السؤال قصدياً، ويلقيه الفرد من باب الترف أو الرياضة الذهنية، ولكنه نضج أو لنقل يقظة أو لنقل أهمية أو إنها حاجة. ولكن القصد ليس فيها، ولا يعني هذا الجبر والقهر للفرد، ولكنها – كما أوضحنا في شرح السؤال الداخلي – يقظة. يقظة لا يستطيع الفرد معها إغلاق عينيه. إنها الطاقة الذاتية أو العبقرية أو الإرادة الحرة، أو كما يقول الغزالي إنه النور الإلهي أو البصيرة الباطنة أو العقل فهو يقول بالنص: «في القلب غريزة تسمى النور الإلهي، وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسماء، فإن الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ، وهو عكس الواجب» (زقزوق، ١٩٨١، ص ١١٢). ويعبر الغزالي في موضع آخر عن إلحاح هذه البصيرة أو النور الإلهي أو أي مصطلح آخر في السؤال أو عدم القصدية بقوله: «وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أوّل أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا» (الغزالي، ١٩٨٠/...، ص ٨١).

وتتضح تلك اليقظة كذلك في شك ديكارت حيث يقول: «وليس بالأمر الجديد ما تبينت من أنني منذ حداثة سني قد تلقيت طائفة من الآراء الباطلة وكنت أحسبها صحيحة، وأن ما بنيته منذ ذلك الحين على مبادئ هذه حالها

من الزعزعة والاضطراب لا يمكن أن يكون إلا شيئاً مشكوكاً فيه جداً ولا يقين له أبداً» (مرجع سابق، ص ٧١). وانحلال رابطة التقليد تلك وتلك الآراء الباطلة – على حدِّ تعبير ديكارت – لم يتم كشفها سوى عن طريق تلك اليقظة، والتي كانت على شكل أسئلة داخلية. وتلك اليقظة التي لا تتجزأ والتي تصل إلى كل شيء ووفق ما قاله الفيلسوفان وغيرهما هي قدرة أو كما دعاها الغزالي غريزة، ولا جدال أنها تغير في الإنسان: في وعيه وفي عمق وشمولية إدراكه.

ولعلَّ عدم القصدية تلك توضحها كلمات الفيلسوفين. وتتضح من تلك المعاناة والألم اللذين يريان لدى كل مفكر عند بداية الشك* كما لدى الغزالي وديكارت أو الدهشة المؤلمة، أو أي اسم آخر. ولعلَّ من آثارها القلق والاكتئاب** والملل والعزلة التي ترى لدى المفكر، علماً أن الشك أو لنقل الفحص لكل إجابة وإلقاء أسئلة أخرى تستمر مع المفكر طوال العمر وتجعله شعلة لا يطفئها سوى الموت، أما ما عدا ذلك فهي شعلة ملتهبة حتى المفكر نفسه يُجهد من حرارتها. فهذا سقراط يطوف بالناس ليسألهم ويبين لهم الأقاويل التي تملأ أدمغتهم. وهذا الجهد أو الضغط تحت تلك اليقظة وشعلتها موجود لدى كل مفكر وإن اختلفت الصور، وإن كانت البداية هي الأكثر إيلاماً. فهذا الغزالي لا يستطيع الفكاك من يقظته؛ من الأسئلة الداخلية فيهجر حياة الرفعة والمكانة، والاستقرار، ليختلي بنفسه، ليعتكف ويتأمل لكي يجيب،

---

* تمّ التركيز على الغزالي وديكارت حيث إن منهجيهما هو الشك الصريح المنهجي، وهو شكل من أشكال السؤال الداخلي أي البعد الأول للفكرة. وهو شكل متكرر تقريباً لدى كل مفكر وإن لم يكن بتلك الصورة، علماً أن شك الشكاكين ليس بسؤال داخلي إنما فكرة مكتملة. فهو شك ارتيابي في إمكانية المعرفة. لذا فهو إجابة وليس سؤالاً. لذا فالشك المنهجي سؤال يبحث عن إجابة حسب الفرد. فهو طريق مفتوح أما الارتيابي فهو مغلق، ونجد الشيء نفسه عند اللاأدريين، فلا أدري تلك ليست مؤقتة وما قيل عن الشك الارتيابي يقال عنها.

** من ضمن ما يعانيه المفكر الاغتراب، والذي يكون نتيجة انهيار البنى المعرفية التي زرعت به رغماً منه دون اختياره، وعندما تنهار يشعر الفرد بأنه يسبح في فراغ ولا ينتمي لأي شيء.

لكي يعايش، لكي يبني أفكاره هو لا غيره، لكي يفحص كل البُنى المعرفية التي بداخله والتي استشرى بها (فيروس) الشك فأخذ يهدها واحدة تلو الأخـــرى، و لم يعد يبقى شيء. وعندها – لدى الغزالي وغيره – يشعر المفكـــر بفجـــوة، بفراغ، وكأنه مولود جديد قد قدم إلى العالم لا يعلم عنه شـــيئاً، ويجـــب أن يفحصه من جديد، أو أنه قد أعطى معلومات غرست به وتقبل غرسها لضعفه، وهو الآن يضيق أو لنقل يصعق على ما بداخله من زيف. وكما قلنا إن البداية هي المؤلمة لأن النور يغمر بصيرة المفكر فيشله لفترة ما، يختل توازنه فتراه كما أسلفنا قلقاً مكتئباً حائراً. ويكون ذلك على قدر اليقظة: من الفكرة الصـــغيرة جداً إلى الصرح الفكري المتكامل نجد تقريباً تلك الأوصاف، ولكنها بارزة في الصروح الفكرية الكبيرة، وهي موجودة حتى لدى الفرد العادي عندما يكتشف شيئاً ولو سخيفاً من وجهة نظر الآخرين، ولكننا هنا نركز على المفكـــر، لأن اليقظة والمعايشة صفة دائمة.

علماً أنه قد يكون نتيجة اليقظة تلك، البحث عن إجابة لدى الآخرين، إلا أنه لا يجد إجابة لديهم، بل يجد من يوصفون بالعلم والحكمة أجهل من الأقل منهم حسب تقسيمهم، ويقول مع سقراط: «لقد بدا لي – وأنا ألاحق أبحاثي انصياعاً لأمر الإله أن أوسع الناس شهرة كانوا جاهلين الجهل المطبق تقريبـــاً، فيما لمست أن من يعتبرهم الناس دون أولئك، كانوا أمهـــر منـــهم بكـــثير في استعمال عقلهم العملي» (مرجع سابق، ص ٣١).

ولقد وصل سقراط لهذه النتيجة بعد مناقشتهم لإيجاد إجابة، إلا أن النتيجة التي وصل إليها سقراط يصل إليها كل مفكر، بالإضافة إلى اليأس من التواصل معهم، حيث يفاجأ المفكر بأنه يخاطب نائمين، أو مخدرين سواء كانت الفكرة كبيرة شاملة أم أقل من ذلك بكثير. وهذا ما يقولـــه المفكـــر وإن اختلفـــت الكلمات، فالآخرون يغطون في أحلام وردية بعيداً عن الحياة، على الهـــامش،

وحتى لو كانت الفكرة عن اختراع بسيط أو بين علاقة بين متغيرين بسيطين، فإنها بالنسبة إليهم على الهامش، وهم عنها نيام. وما يقال عن الفكرة الصغيرة يقال عن الأفكار الكبيرة التي يتضح فيها السبات أو التخدر. فكلما كان الإنسان أقل ذكاء أو معايشة كان الوجود في عينيه بسيطاً سهلاً مفهوماً جداً. وهذا هو الهامش.

ذلك الهامش الذي يهرب منه المفكر للبحث عن إجابة، ويدع النائمين أو المتخدرين وقد يلومهم على ذلك وقد لا يلومهم لعلمه بعدم يقظتهم، يعيشهم على الهامش، لتقليدهم كما يقول الغزالي، وعدم إلقائهم للسؤال الداخلي المؤدي إلى المعايشة كنقطة بداية لها. وبهذا الصدد يقول الغزالي: «ومن شرط المقلد ألاّ يعلم أنه مقلد، فإذا علم انكسرت زجاجة تقليده» (مرجع سابق، ص ٩٠). فالفرد لا يعلم أنه مقلد كما لا يعلم بتبعيته، ولو علم بذلك لاختار الأصالة أو الاستقلالية. ومن هذا يتضح مفهوم عدم القصدية أو اليقظة أو السؤال الداخلي.

وذلك الهروب من الهامش وشعوره بأنه ليس المخطئ بل الآخر، وأن ما يمر به إنما هو يقظة فعلاً، وأن الكثرة ليست معياراً للصحة، كما أن اللذة ليست كذلك. من هذا فإن الفرد يقدر تلك اليقظة وتلك الأسئلة الداخلية وينطلق إلى البحث عن إجابة وهو يردد مع الغزالي: «إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال» (الغزالي، ..../١٩٦٤، ص ٤٠٩). أو كما يرى ديكارت حيث يرهن التفكير بالشك، ذلك التفكير المؤدي إلى الوجود، ومعنى هذا الشك أو السؤال الداخلي حيث يجب أن ترى بعينيك لا بعيني من هو قريب منك أو الوسط الذي تعيش فيه (ومرة أخرى أياً كانت الفكرة من حيث الشمولية)

سواء الأب أو الأم* أو الأستاذ أو المجتمع ورفض التبعية والاتجاه نحو الاستقلالية، حيث لا يكون نسخة مكررة، يمثل المجتمع بركوده، بهامشه (لذا يكفيك أن ترى واحداً من العامة في أي مجتمع لتعلم البقية)، ولا يشذ عن ذلك سوى المفكر. وقد يترجم ذلك الشك في تفعيل من منطلق أن المشكلة ليست أن الإنسان لا يستطيع التفكير بل المشكلة أنه لا يعرف كيف يفكر. وهذا فيما يبدو هو ما عمله سقراط من انطلاقه لمناقشة الآخرين لمحاولة جرّهم إلى الاعتراف بالجهل وكشف عدم تماسك ما يدعونه وعدم علمهم به، أو بمعنى آخر كشف تقليدهم. عندها يقع الفرد بالشك، عندها يلتفت يبحث عن الحل. وما هذه سوى محاولة خارجية لإلقاء سؤال داخلي أو لنقل توليداً وليست ولادة. ولعلَّ هذا حتى ما يقوله سقراط في أسلوبه التهكمي، فهو يولد الأفكار أو بمعنى أصح السؤال الداخلي، بعد استبعاد الإجابات التي كان يعلقها الفرد على لسانه دون معايشة لها.

عموماً ذلك هو الشك أو اليقظة أو لنقل البعد الأول من الفكرة الداخلية من مشوار المعايشة وهو السؤال الداخلي غير القصدي والمؤلم، والذي يخل بتوازن الفرد، والذي يهدم بناء المعرفية (حسب مجال السؤال الداخلي)، والذي يجعله يبحث عن إجابة حوله ولكنه لا يجد. ذلك هو الشك، الذي يقوده إلى الشك في نفسه أيضاً؛ إلا أنه بالتأمل والمعاناة يعلم أنه هو على صواب والآخر خاطئ، وقد ينقم عليهم، وقد يحاول إيقاظهم. هذا ما يحصل باختصار عند أوّل محطة في المعايشة (علماً أن محاولة إيقاظ الآخرين تستمر مع الفرد وبشكل أكبر عند توصله لفكرة ما) أما المحطة الأخرى والتي ينطلق إليها المفكر فهي

---

* يقول الغزالي بهذا الصدد في المنقذ (ص ١١١): «وهذه عادة ضعفاء العقول، يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق». ويستشهد بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله». وهذا يذكرنا بأخذ الفكرة لأجل القائل، أو كون البرهان لأجل القائل وهذا ما نقابله بشكل كبير لدى العامة.

الإجابة بعد أن استوعب صدمة اليقظة، والإحساس بأنه قد يكون شاذاً مخطئاً، بل بعد أن أجهده نور السؤال الداخلي، وجرفه تيار الأسئلة الداخلية المتلاحقة، بعد هذا يبدأ مشوار البحث عن الإجابة، وتبدأ معاناة* أخرى وألم آخر وإن أخف وطأة من وقع الشك أو الأسئلة الداخلية الأولى، وكما أن شمولية السؤال تكون وفق أصالة وعمق المفكر، فكذلك الإجابة والبرهنة. وهنا قد يهرب المفكر إلى إجابة ما ليطفئ توتر وقلق السؤال (وإن كان السؤال الداخلي لا تطفئه سوى الإجابات الداخلية)، ولكن المشكلة في برهنة الإجابة الداخلية، فقد يكون برهانها حقيقة ذاتية زائفة. ومع استبعاد ذلك لأن المفكر أصيل، فالمشكلة هي الخليط الذي تحدثنا عنه وهو العقلنة أو المنطقة وهو خليط من حقيقة ذاتية أصيلة مع زائفة، وقد يكون مع ذلك حقيقة موضوعية. وهنا تكون الإجابة فعلاً لأجل التخلص من ذلك القلق؛ بمعنى آخر تكون ميكانزماً.

ومع تلك الاحتمالات فإن الإجابة المعاشة هي المبرهنة ذات الحقيقة الذاتية الأصيلة، والتي تكمل مثلث الفكرة. وتتميز الإجابات ذات الحقيقة الذاتية الأصيلة عن الزائفة، بالمرونة والانفتاح في حالة الأصيلة وغير الموجودة بل عكسها في حالات الزائفة. ولكن ليس من السهل كشفه في حالة ذلك الخليط حيث إن القائل مفكر.

عموماً ينتقل المفكر – كما أسلفنا – إلى البعد الآخر وهو الإجابة بمعاناة وألم. وكما أن الملاحظ في البعد الأول الحيرة والقلق والعزلة، فإن ما هو ملاحظة أثناء الرحلة إلى البعد الثاني والثالث هو العزلة كذلك فيما يبدو للآخرين من (سرحان)، فيما الصراع يدور داخل الفرد كـ (البندول) من

---

* مشكلة العامة أو حتى أنصاف المثقفين، عند قراءة أي إنتاج لأي مفكر أصيل، أنهم لا يستطيعون تصور معاناة المفكر، بل بعضهم قد يسخر من ذلك ويستهزئ به، وهذا راجع طبعاً لعدم المعايشة.

إجابة إلى البعد الثالث للاختبار. فإذا لم تصدق الإجابة يعود إلى البحث عن إجابة أخرى، وإذا ما حصل ذلك اتجه للبعد الثالث لاختبارها وهكذا.

ومن الصعب وصف البعدين الآخرين لدى المفكر، ولكن قد يتضحان من خلال الموضوعات القادمة مثل المعايشة والوجود وكذلك المعايشة والترميز وغيرها من المواضيع التالية.

نتوقف هنا لنقول: إن مفهوم المعايشة هو علامة المفكر، سواء كان نتيجة أو سبباً، وهو سرّ تغيره وتغييره، سرّ عظمته، تجدده وتجديد إنسانيته السامية الأكثر حرية، الأخذ بيد العامة، المرشد لهم في كل زمان ومكان. والعلامة البارزة في أي تاريخ، بل إنه هو التاريخ، فبدونه لا تغير ولا تجديد، لا أحداث لا شكل ينبثق من تلك الأرضية.

يقول توماس كارليل في وصف بديع: «إذن في اعتقادي أن التاريخ العام – تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم – إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء، فهم الأئمة، وهم المكيفون للأمور، وهم الأسوة والقدرة، وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا، وكل ما بلغه العالم، وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذي اصطفاهم الله، وأرسلهم إلى الناس ليؤدوا كل ما ناطته بهم القدرة الإلهية من الخير، فروح تاريخ العالم إنما هو من تاريخ أولئك الفحول» (كارليل، ١٨٤١/بدون، ص ١٥).

ويقول في موضع آخر (ص ٣٤ – ٣٥) في وصف أكثر جمالاً: «وكم قبل هذا الرجل عاش في العالم من رجال غير ذوي فكر لم يكن منهم إزاء هذا الكون الرائع الهائل إلا العجب الأبكم الذي يحسه الحيوان، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكادّ بغير طائل كالذي يشعر به الإنسان، حتى أتى

الرجل المفكر الكبير أو البطل الروحاني، إن ما يقوله قد كان كامناً في نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لا سبيل، فما هو إلا أن ينطلق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار في جميع الأذهان، وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحاني، فإن ما يقوله قد كان كامناً في نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لا سبيل، فما هو إلا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار من مكامنها كأنما هبت من رقاد طويل، فتجيب الدعوة أسرع إجابة، فرحة به فرح الساري بالصباح. ولا غرو، فإنما هو خروج من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة، فيا سقى الله عهد هذا الرجل الكبير فإنه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شاكل ذلك، وإن حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدي أياد وآلاء..! والفكر حتى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبداً».

ولا جدال في أن تلك الكلمات المضيئة تحمل من المعاني الكثير، ولتحليل تشبعها بتلك المعاني فإنها تحتاج للكثير من الشرح. ويلاحظ أن الجزء الأول منها يعبر وبشكل واضح عن قضية المعايشة، فما تحريك راقد الأفكار إلا المعايشة بعينها أو بمعنى أصح الدفع نحو المعايشة، ومع تحفظنا تجاه المعايشة بالدفع، أو المعايشة النقية — إن صحَّ التعبير — لدى العامة، إلا أن تأثير المفكر على من حوله كبير فهو بمعنى أصبح لا يدفع نحو المعايشة (فهي مقصورة عليه) وإنما يحسسهم بحرارة المعايشة وهنالك فرق كبير بين أن يحس بحرارة المعايشة وبين أن يعايش فعلياً.

ولأن المحيطين بالمفكر يحسون فقط بحرارة تلك المعايشة، فإنه بمجرد اختفاء المفكر كموته مثلاً، فإن مصدر تلك الحرارة والإشعاع يختفي. لذا لا يبقى سوى أثر تلك الحرارة ويبدأ المحيطون يجترونها أو يلوكونها وهي تفقد حرارتها

شيئاً فشيئاً، حتى تبرد (حسب الفكرة ومقدار إحساسهم بحرارتها). وبعـــدها ينصرفون عنها، وقد يكونون هم المحيطين أنفسهم بالمفكر، أو ربما تلاميـــذهم كذلك، وهذا ما يحصل في أي تيار فكري. لذا فتوماس كارليـــل يقـــول في موضوع آخر: «ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وســـائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا» (ص ٨٩). ونعود لنقول: إن ذلك التأجج والالتهاب مصيره الخمود، لـــذا يُطلـــب مفكر آخر ليعيد ذلك الاشتعال والتأجج.

ونقول ختاماً: إن المفكر هو الشعلة، وهو ليس محصوراً بفكرته، فهو الموجد أصلاً، لأنه المعايش لها كما أنه يعايش دائماً، أو إبداع على الدوام وتلاميـــذه العمالقة مهما بلغوا فهم يحملون قبساً من أنوار المفكر. لذا لا يستطيعون تجاوز المفكر، فلا يتجاوز المفكر سوى نفسه، أما التلميذ فهـــو جامـــد في قوالـــب استمدها من المفكر؛ يد تتسول ما عايشه المفكر، والفرق كبير جداً بين العطاء والأخذ!!.

ختاماً إنها المعايشة سرّ المفكر وقوته، وبدونها فهو من العامة. أما من تـــأتي القدرة على المعايشة؟ فهذا هو السؤال. فهل هي نتاج ذكاء؟ أم ذكاء وعوامل شخصية؟ أم ماذا؟.

وهذا هو السؤال، ولكن أياً كان السبب، فهي نتائج نضج، نضج الإنسان ولكن أي جزء؟ ربما هذا هو السؤال.

(١-٤-٣) المعايشة والوجود

من المفاهيم المهمة التي تتصل بمفهوم المعايشة هو مفهوم الوجود الفعلـــي، والذي قد يوضح أكثر مفهوم المعايشة.

أما مفهوم الوجود الحقيقي أو الفعلي، فقد يتضح من خلال أنواعه، ومن خلال حديثنا عنه. ويبدو أن الوجود ينقسم إلى قسمين:

١) وجود بدائي، أو لنقل (سطحي). ٢) وجود راقٍ، أو لنقل (عميق).

أما النوع الأول السطحي فهو نتيجة الفكرة ذات الأبعاد الخارجية وقد يكون أقل من ذلك في حالة الأقاويل. ويلاحظ أن هذا الوجود إنما هو وعي بالفكرة عن طريق الآخرين وغالباً – إن لم يكن دائماً – يدرك بواسطة الحواس*.

أما الوجود الراقي فهو الوجود المنبثق من المعايشة. وهذا يعني أنه وعي بالفكرة ولكنه وعي ذاتي، كما ليس بالضرورة إدراكه بالحواس وهذا يعني تجاوزها.

فإذا أضفنا عدم الوجود كبداية، أصبح أمامنا بُعد يمتد من عدم الوجود إلى الوجود الراقي. ويتضح من هذا كون الأقاويل أقل من الفكرة ذات الأبعاد الخارجية ولكنها ليست معدومة.

وعدم الوجود هو كون الفكرة لم تدرك بالحواس، أو حتى من دونها (أي العقل)؛ بمعنى لا توجد أي فكرة عنه؛ ومن ثمَّ، لا يوجد أي تصور (مثل فكرة الحساب الآلي للرجل البدائي). وهذا يعني أنه لا يعيها لا عن طريق الآخرين ولا بالطبع عن طريق ذاته.

---

* يعقد الغزالي مقارنة ما بين حاسة البصر وملكة العقل ويقول فيها باختصار: «(١) العقل يعرف نفسه فيما العين عكس ذلك، فالعقل يدرك نفسه ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وهكذا إلى ما لا نهاية. (٢) لا تستطيع أن ترى العين الشيء المفرط في البعد أو القرب، فيما البعد أو القرب لا يلعب دوراً ما بالنسبة إلى العقل. (٣) لا تستطيع العين أن تدرك ما وراء الحجب فيما العقل العكس في ذلك. (٤) العين لا ترى إلا ظواهر الأشياء فيما العقل يتغلغل إلى بواطن الأمور وأسرارها. (٥) لا تستطيع العين أن تدرك ما لا نهاية له إنما تبصر صفات الأجسام، والأجسام متناهية، ولكن العقل يدرك المعلومات وهي غير متناهية. (٦) العين تخضع لكثير من الخداع فيما العقل العكس» (في: زقزوق، ١٩٨١). والمقارنة لا تصور بالضبط ما نحن بصدده ولكن بعض تلك النقاط قد تصور ما عنيناه بالنوعين من الوجود.

وذلك التمييز بين تلك النوعيات الكمية إنما هو بحق تمييز مهم جداً حيث إن كثيراً من المفاهيم المختلفة إنما تحدد – إذا جاز التعبير – وفق كم الوجود لدى الفرد. وكما سنرى فإن المنعطف التالي والمهم في موضوعنا هذا بعد الفكـــرة والمعايشة إنما هو (الوجود).

ووجود الفكرة سيحدد الإيمان والانتماء، كذلك المعنى والقيمة والقوة لهـــا وبها. وعلى الوجود كذلك سيبنى مفهوم الاتصال بين الأفراد وكذلك مفاهيم أخرى هي نتائج لمفهوم الوجود أو نتاج غير مباشر عن طريق عمليات أخرى.

وقضية الوجود إنما هي قضية وعي. فيبدو أن العالم على حالة، عندما أنظر إليه وينظر إليه الآخر، ولكن الصورة التي لدي وإحساسي بوجود ذلك العـــالم مختلف لدي عمّا لدى الآخر، قد تكون هذه نظرة مثالية ولكنها فيمـــا يبـــدو تصور لنا مفهوم الوجود المرتكز على الوعي. والوعي في قضيتنا هذه مستند إلى المعايشة، فما أعايشه هو دنياي فعلاً وعالمي، ما يؤثر في وما أؤثر فيه. والتـــأثر بأي فكرة إنما هو معتمد بشكل كلي على المعايشة والتي ينبثق منها الوجـــود الحقيقي.

ولتوضيح تلك الأسطر نقول: إن كثيراً من الأفكار ذات الأبعاد الخارجيـــة والصادقة موضوعياً تطرق أذهاننا ونتعرض للكثير الكثير منها يومياً وفي كـــل لحظة، إلا أنها لا تكون موجودة وجوداً حقيقياً. قد تأخذ درجة بسيطة علـــى ذلك ولكن الغالب أنه وجود بدائي أو سطحي.

ولكن عندما يعايش الفرد فكرة ما – وقد يكون تعرض لها مراراً – فـــإن الحياة تدب فيها وتنتفض رموزها، فإذا هي ممتلئة بالمعنى وإذا به يحس بنبضها، وإذا هي توسع عالمه. وتحصل أثناء ذلك عمليتان متداخلتان – حسب الفكرة وشموليتها – وهي تغير ثم تغيير. فهو بعدها يصبح فرداً آخر وإن كان التقـــدم

بطيئاً ولكنه تغير، وبعدها تأتي عملية التغيير. فالفرد يبدأ ينظر إلى من حوله — في مجال تلك الفكرة — بشكل آخر ويبدأ في التغيير.

وهذا كله ليس وصفاً أدبياً — كما كررنا مراراً —؛ إنه ما يحصل فعلاً. فليس الوجود الفعلي إدراك حواس فقط، وحتى كثير من المدركات بالحواس لا ندركها تماماً بتلك الحواس. ثم إن إدراك الحواس تلك تقتله العادة أو التعود فيصبح وجوداً سطحياً. وهذا ما يجعل عالم الكثير من الأفراد على اتساعه إلا أنه سطحي، فيكون فعلياً ضيقاً أو بمعنى آخر فقيراً. فليس ثراء عالم الفرد بكثرة ما يتعرض له من مؤثرات بيئية، بل بقدر وعيه بتلك المؤثرات ومعايشته لها، ولو كانت قليلة. فقد يسافر واحد ويقطع الأرض عرضاً وطولاً ويعيش العمر المديد وعندما يحتضر نجد أنه يقول: كأني لم أعش، إنه حلم.

وقد يوجد آخر قد سُجن في غرفة مظلمة أو جزيرة منعزلة و لم يعش زمناً سوى القليل، ومع ذلك فإنه من حين يحتضر يقول: لقد عشت وشاهدت كثيراً. فهو عايش أماكن وأزمنة عديدة جداً، مع أنه موجود جسدياً في ذلك الجزء الضيق. إن حجم البيئة والعيش الطويل الزمني ليس معياراً للوجود الحقيقي والعيش الحقيقي، إنها المعايشة الفكرية.

ومقارنة الرجل الأول بالثاني كمقارنة حيوان بإنسان، فالحيوان عالمه ضعيف ووعيه به سطحي مهما بلغ من ثراء البيئة ومع العمر الزمني الطويل. أما الإنسان فيظل الوجود بالنسبة إليه مع قصر عمره وفقر بيئته ولكن بوعيه أكثر رسوخاً أو وجوداً من ذلك الحيوان.

ولعلَّ المثال الآخر في ذلك وفي قضية الوعي والوجود الحقيقي، هو الإنسان عندما يمرض، ولنفرض أنه تعرض لحمى، وفي أثناء ذلك كان في سفر وتنقل وترحال، وآخر لم يكن محموماً. عندما يشفى الأول فإنه يصرح — وإن لم يكن

يصرح فهو يحسها – بأن الفترة التي قضاها مريضاً ومع تنقله كأنها حلم، أما الآخر فلا يصرح ولا يحس بذلك.

إن كثيراً من الموجودات بالنسبة إلى العامة من الناس إنما هي وجود سطحي كما يرى ذلك المريض ولكن الفرق أن العامة لا تفيق إلا حين المعايشة أو قد تكون بعض الأزمات (وهذا احتمال فقط) وختاماً الموت.

لذا نرى أن المفكر يكاد يجن وهو يرى أشياء كثيرة ويهمس بها لمن حوله ولكن من حوله لا يلتفتون بل قد يسخرون منه.

وهذا ما يجعل المفكر يشد شعره ويكاد يجن إن لم يجن فعلاً، فهو يرى أشياء كثيرة ويحس بوجودها إحساساً عميقاً ولكن من حوله لا يحسون بذلك، وبشكل خاص مع بداية اليقظة كما أسلفنا أو إلقاء الأسئلة الداخلية.

ولا نودّ الدخول أكثر إلى وصف النوعين ولكن نختتم هذا الوصف بالقول: إن التفاعل مع الحياة هو على قدر الإحساس بالوجود. فمن لم نعايش فالوجود بالنسبة إليه وجود سطحي ولا يختلف عن الوجود لدى الحالم أو الحيوان أو المحموم إلا قليلاً، حتى مع وجود الفرد واحتكاكه بالبيئة التي حوله، ولكنه احتكاك قشري لا تفاعلي كما لدى الآخر.

ولعلَّ قضية التفاعل تلك تذكر بأشكال المادة وهي: العنصر المركب والخليط. ولعلَّ هذه المعلومة من أبسط وأوّل المعلومات في الكيمياء.

وهذه المعلومة إذا ما استعرناها فإننا نرى الإنسان كعنصر، فهو لا يبقي على حاله عنصراً فهو إما خليط وإما مركب.

ومع الفرق فإن الفرد ذا الوجود السطحي إنما هو خليط بالعنصر الآخر أو الموجودات الأخرى في البيئة، ومن ثمّ، لا يتفاعل معها، ومن ثمّ، لا يتغير أبداً،

واحتكاكه بتلك الموجودات إنما هو احتكاك قشري أو لنقل (سطحي). أمـــا الآخر فإنه يتفاعل مع الموجودات الأخرى يؤثر ويتأثر بها يغير ويتغير (مع عدم فقده لخصوصيته: يعود عنصراً مرة أخرى ثم يتفاعل وهكذا)، إنه تفاعل وهذا يصور أن الوجود يعني التفاعل، وليس كل وجود وجوداً فعلياً.

وكما أسلفنا فإن ذلك الوجود الراقي إنما هو منبعث مـــن المعايشـــة، ولا وجود وجوداً حقيقياً لأي فكرة ما لم نعايشها، حتى لو كانت تـــردد علـــى مسامعنا ليل نهار. لكن عندما نعايش فإن الفكرة تنتفض وكأن الحياة بعثت بها، وعندها نحس بها وبقيمتها وبصوابها (حتى الفكرة النافية تعتبر صواباً في نفيها، لذا لم نستخدم لفظ فكرة خاطئة، حيث إن نفيها صواب). وتصبح بعد ذلك من ضمن عالم الفرد المعايش ولنقل دنياه، وقد يصرخ الفرد بالفكرة قائلاً بها، فيرد عليه: لقد قيلت من قبل وموجودة من قبل. فيرد: ولكنها الآن بالنسبة إلي حقيقية، ومن قبل لم تكن موجودة*.

وفي ذلك الأثناء تكون الفكرة جزءاً من الفرد — كما أسلفنا — فهو هـــي، وهي هو مدفوعة بحاجات عليا خلاف الحقيقة الذاتية الزائفة كمـــا يصـــفها إبراهام ماسلو قائلاً: «لكن هذه المحركات الدافعية للأشخاص المحققين لذواتهم تختلف بشكل ما عن الحاجات الأساسية وعن دوافع النقص، فالشخص يتوحد معها، ويستنبطها، ويستدخلها، ويتشرب بها ويجعلها داخل ذاته، لكـــن هـــذا يزيل الحاجز بين الذات والآخر، وبين ما هو داخلي وما هو خـــارجي، بـــين الأنانية واللاأنانية، فإذا كنت متوحداً مع الحق أو الجمال أو العدالة فإن هـــذه

---

* عندما يعي الفرد كثيراً مما حوله بوساطة المعايشة ويصبح وجود تلك المواضيع وجوداً حقيقياً فإنه يلقي الســـؤال الصـــعب والمحير بالنسبة إليه ولغيره، والسؤال هو «هذا ما عايشته وأحسست بوجوده الحقيقي بعد أن كان عدماً أو لنقل وجـــوداً سطحياً فكيف بأشياء كثيرة حتى الآن لم أعايشها و لم أستيقظ عليها؟ ما هي تلك الأشياء؟ وكيف ستكون نظرتي إلى العالم بعد ذلك؟» وقد تلقى أسئلة أخرى بهذا الصدد تجعل الفرد في حيرة بالغة وعندها يعلم مقدار جهله وضآلته.

المحركات تكون بداخلي وكذلك بخارجي، ومن ثمّ، فإن المعاني العليا خارجياً تصير جزءاً من الذات، كذلك يمكننا الآن أن ننظر إلى الذات العليا ومطامحها أو تطلعاتها أو معانيها العليا على أنها في الحقيقة جزء من العالم» (Maslow, 1966).

وهذه كلمات يمكن أن تصف الوجود الحقيقي مع استبدال القيم كما وردت بالفكرة الْمُعاشة، حيث يقول الفرد المعايش عن الفكرة التي عايشها: إنها أنا وأنا هي، فهي تملأ كل خلية بجسدي، تملأ داخلي، أشعر بها في كل جزء مني، وفي نظراتي إلى العالم. لذلك أنا هي، وهي أنا.

وفيما يبدو أن قضية الوجود الفعلي لا تنحصر في المواضيع الخارجية للفرد، بل حتى الفرد لا يخرج عن هذا المفهوم، في معايشته لنفسه أو لنقل لأناه لكي توجد وجوداً فعلياً، فمعايشة المواضيع الخارجية تجعل وجودها وجوداً حقيقياً ولكنها لا تجعل وجود الأنا وجوداً حقيقياً ما لم تعايش هي الأخرى. لذا فيبدو أن الكوجيتو الديكارتي (أنا أفكر إذن أنا موجود) يمكن أن نعدله وفق هذا المفهوم إلى:

أنا أعايش الأنا إذن ذلك الأنا موجود وجوداً حقيقياً.

أو بمعنى آخر

أنا أسأل وأجيب وأبرهن عن الأنا إذن فتلك الأنا موجودة* فعلياً.

وقد تكون تلك القضية واسعة، ولكن ندعها إلى ما هو أوضح في قضية الوجود، لنقول: إن الوجود الحقيقي أو الفعلي لا يدع مجالاً ويقتحمه. فيبدو أن الجانب الوجداني لا يخرج عن ذلك، فالقصيدة أو القصة أو قطعة الموسيقا

---

* وهذا يعني أنه ليس كل تفكير – حتى حسب مفهوم ديكارت – يقود إلى الوجود إذا لم يستكمل عناصره الثلاثة، فقد يسأل الفرد عن الأنا ولكن لا يجيب، وعندها فهذا ليس وجوداً!! لذا فالأنا هامشية قبل ذلك.

لا تكون موجودة وجوداً فعلياً إلا إذا تمت معايشتها. وعندما يكون كـــذلك تكتسب معنى وقيماً لدينا، لذا تختلف الأحكام وفق ذلك.

وكثيراً ما نتحمس لإنتاج ما، كقصة أو رواية أو فلـــم... إلخ. ونتوقـــع النجاح له وقد تكون النتيجة العكس، وذلك عائد إلى معايشتنا لـــه، ولأنـــه موجود فعلياً بالنسبة إلينا فقط. والمعايشة هنا والوجود الفعلي إنما هو الجمال. فذلك الفلم أو الرواية أو القصة أو القطعة الشعرية لن يُحس بجماله أو جمالهـــا إلا إذا كانت الخبرة معاشة والتي تتحدث عنها. وهذا يقحمنا في موضوع كبير في فلسفة الجمال – مع أن موضوعنا كما أسلفنا يتطرق لمواضيع شتى – وهو أن المعايشة هي الجمال*، فلا جمال إلا بمعايشة، ووجود حقيقي فعلي.

وهذا يشير إلى شمولية مفهوم المعايشة والوجود المنبثق منه، فحتى الكلمـــة البسيطة التي ينطق بها الجميع (أي كلمة وأي نص مهما بلغ وضوحه المنطقي أو جانب البناء الفكري به) لا يكتسب الوجود الفعلي ولا ينبض بالحياة ولا يمتلئ إلا عند المعايشة، عندها يكون كذلك، عندها يكتسب معنى آخـــر، خـــلاف الحال الأول**.

عموماً مفهوم الوجود الفعلي كنتيجة للمعايشة مفهوم شامل، يغطي كـــل شيء، إنه وعي إنه حياة أخرى، أو عالم آخر، كالفرق بين رؤية الحالم ورؤية الواقع، أو رؤية المريض والمعافى.

ومع صعوبة شرح هذا المفهوم فقد يتضح كذلك شأنه شأن غـــيره مـــن المفاهيم عند التطرق للمفاهيم الأخرى والتي هي إفراز له بشكل مباشر أو غير مباشر علماً أن جميع تلك المفاهيم من الفكرة إلى المعايشة الوجود الحقيقـــي أو

---

* يمكننا القول إنه ما من لذة إلا وقتلها التعود أو العادة ما عدا ما يعايش!!

** لذا فيبدو أنه من الأفضل ألا ينطلق الفرد إلا بالكلمات التي عايشها، ومن ثمّ، وكما أسلفنا في البرهان هل ينطبق هـــذا حتى على الكلمات الإنشائية؟

الفعلي وما يتبعها، إنما هي مفاهيم متصلة بعضها ببعض، بشكل قد يجعل من الصعب فصلها عن بعضها أو القول بترتيب زمني، وإن كل هذا ما نحاول صنعه، ولكن الفرق الزمني صعب جداً. فعلى سبيل المثال عندما تحصل المعايشة فإن الوجود يتم كذلك، وفي اللحظة نفسها تبرز نواتج أخرى كالقيمة للفكرة والمعنى والإيمان والانتماء بها. ولكن لغرض الشرح والتبسيط يتم التطرق إلى تلك المفاهيم بتسلسل قد لا يصور الواقع.

ولعلَّ من المفاهيم ذات الصلة القوية بالوجود الحقيقي – والتي ذكرنا منها القيمة والمعنى والجمال – التغير وإن كان قد سبق ذكره على عجالة، فإننا هنا نحاول وصف عملية التغير والتغيير والتي تعقب الوجود الفعلي ثم تكون سبباً له مرة أخرى حيث يكون نتاجه تغيراً وتغييراً وتستمر العملية أو الدائرة. ونجدها بشكل كبير لدى المفكر، سلسلة من المعايشة والوجود والتغير والتغيير.

فعالم الفرد قبل المعايشة عالم قتلته العادة أو التعود أو أي مصطلح آخر، ولكن الملاحظ وبشكل جلي هو أن الوجود بهذا العالم سطحي، لا يتعدى الشكل فقط، أو الإحساس حتى البدائي لذلك. فحجم ذلك العالم صغير مع ما به من ثراء وألغاز وأسرار. فإنه بما فيه من أفكار حبات رمل لا يراها الفرد أبداً، ولكن عندما يعايش فإن حبات الرمل تلك تصبح جبالاً. وذلك العالم السطحي يصعق الفرد بما فيه من أعماق. وذلك العالم بركوده إنما يخفي عوالم لا حصر لها. عندها يتوقف الفرد وكأن شيئاً اعترض سيره، أوقفه رغماً عنه، وهذا الوجود إنما هو نتاج يقظة. إلا أن الملاحظ أن تلك اليقظة وما يعقبها من وجود ترتد مرة أخرى لتحرك خدرَ وسكون الفرد وهمزه ليستيقظ أكثر وينظر (متحركاً من العبث إلى الجد) ويلتفت إلى حبات الرمل التي يطؤها يومياً ولا يعلم عنها شيئاً، ويبدأ يحس بذاته. ومن هنا تبدأ مسيرة التغير والتغيير، دائرة

مستمرة من إلقاء الأسئلة الداخلية إلى المعايشة الكاملة ثم الوجود الفعلي يليها تغير مصدره، ذلك الوجود الفعلي والذي يؤدي إلى مزيد من الأسئلة الداخلية (وليس بالضرورة أن تستمر العملية بالشكل المذكور). فالوجود الفعلي لمواضيع عديدة، إنما هو اتساع لعالم الفرد، وهذا ما يجعل المفكر يموت وهو يعايش مع حيرة بالغة، ويتغير تغيراً شاملاً كل لحظة، ما دام على قيد الحياة. فتلك الخبرات تغيره بشكل كبير على قدر المعايشة.

علماً أن ذلك التغير لا يكون تغيراً فقط بالنسبة إلى المفكر، بل إن المفكر — كما أسلفنا — يتفاعل مع الموجودات للتغيير، فعالم المفكر مفتوح، تغير مستمر وتغيير كذلك.

وعندما ننتقل إلى الفرد العادي فإن عالمه مغلق، لا جديد، لا وجود حقيقيّاً بالنسبة إليه. لذا فهو لا يتغير ولا يغير فعلياً، فعالمه جيد، عادي، لا مشكلة فيه، وهكذا يعيش على الهامش.

ومن هذا فإن الفرد العادي بحق أشبه ما يكون بشجر أو حجر، لا يغير ولا يتغير فعلياً، إلا بعوامل التعرية أو النمو، وعوامل تعرية الفرد تجعد الجلد والشيب والشيخوخة، أما تغير حقيقي فلا. وهذا يعني أنه هو نفسه حتى لو بعد عشرة أو عشرين أو ثلاثين عاماً أو أكثر، لا تغير إلى ما سببته عوامل التعرية بالنسبة إليه. وهذا لأن عالمه مغلق، يسير مع التيار، لم يستيقظ، عالمه هو هو، سطحي، لم يستيقظ و لم يتغير.

أما المفكر — كما أسلفنا — فحتى لو كانت بيئته فقيرة وعمره الزمني قصيراً فإن تغيره حقيقي. وقد يتغير كل لحظة لأنه يعايش على الدوام، وقد يترك على حالة ما وبعد أيام يوجد شخص آخر: سار عدة خطوات في طريق إنسانيته الحقة وحريته وقوته الحقيقية هي تفرده.

فمن الطريف أن العامة متشابهة بشكل كبير، وذلك لأن عالمها مغلق ويكفي أن تقابل واحداً منها في أي مجتمع لتعلم كيف تتحدث (لا نقول تفكر لأن الفكرة لها أبعاد لا توجد لدى العامة)، أو تقول وما تختزنه من معلومات. فهي أشبه ما تكون بأجهزة التسجيل. أما المفكر فإنه متفرد، إنه عالم بذاته كالبصمة لا يشبهه أحد، سلسلة معقدة من اليقظة ثم الوجود ثم مزيد من اليقظة وهكذا. لذلك فهو ليس نسخةً لأحد.

لذا فمن الملاحظ – كما تطرقنا في المعايشة والمفكر – أن الوحيد الذي يحرك العامة والْمُغير دوماً هو المفكر. وهو الذي يحاول أن يفتح العيون أو بمعنى أصح العقول النائمة على ما يراه أملاً في تغير الآخرين عندما يبصرون.

علماً أن المفكر يحاول أن ينقل ذلك الوجود الحقيقي إلى الآخرين بطريقته، وهذا ما سنتطرق إليه تحت مفهوم الترميز، حيث إن المفكر يعي الموجودات تلك بشكل آخر وليس بالشكل السطحي الأول. وعندها يحاول نقلها إلى الآخرين ليس بالشكل السطحي إنما كما يراها الآن: وجوداً حقيقياً.

على أي حال قلنا إن الوجود الحقيقي هو: القيمة والمعنى وهو الجمال وهو التغير والتغيير، وهو اتساع عالم الفرد، وهو العيش فعلاً، وبشكل خاص إذا عايش الحياة كفكرة كبرى، وعايش أناه كذلك.

وتحدثنا عن الوجود بشكل مستفيض وكررنا كثيراً من المفاهيم في أكثر من موضوع لنؤكدها. وقلنا إن مفهوم الوجود ذو قيمة وسيعقبه كثير من المفاهيم، مثل الترميز، كما كررنا، والإيمان والانتماء والقوة والمعنى... إلخ.

ولكن هل الوجود الفعلي – المنبثق من المعايشة – دائماً إيجابي بذلك الشكل الكبير؟ والذي أحال كثيراً من المفاهيم إلى النقيض.

نقول: إذا وجد إفراز سلبي للوجود الفعلي أو الحقيقي فإنه يتمثل في طبيعته

كوجود فعلي، أو نقول بمعنى آخر: عندما يوجد شيء فعلياً بالنسبة إلى الفرد كثيراً ما ينكر الأشياء الأخرى. فالمفكر عندما يعايش فكرة ما، فإنها توجد وجوداً حقيقياً بالنسبة إليه، ولكن المشكلة أن الأفكار الأخرى والتي في المجال نفسه وجودها سطحي بالنسبة إليه. لذا فإنه يلغيها أو بمعنى آخر ينكرها، وهذا نتاج خبرة المعايشة والوجود الحقيقي العميقة. فهي — كما أسلفنا — تهزّ الفرد هزاً. فذلك الشيء بحجم حبة الرمل وبعد المعايشة جبل كبير أيّاً غدا أو راح أمامه، ويراها في كل شيء لأنها هي الوحيدة الموجودة فعلاً. ويمكن القول إن ما يحصل للفرد أو المفكر هو ما يمكن وصفه أو دعوته (بصدمة الوجود) أو لنقل (صعقة الوجود الفعلي) حيث إن لسان حال المفكر في تلك اللحظة أنه لا يوجد سوى تلك الفكرة وما عداها فلا. وتلك الفكرة هي الفكرة التي عايشها المفكر، وليس كل مفكر يقول ذلك حيث ينقسمون إلى قسمين، وكل من القسمين يثبت الجزء الأول وهو إثبات الفكرة المعاشة ويتوقف القسم الأول عند هذا حيث لا يصدر حكماً إزاء الأفكار الأخرى، بل يحتفظ ويقول: قد تكون الأفكار الأخرى صحيحة أو خاطئة (صحيحة هنا يمكن القول إنها موجودة فعلاً أو غير موجودة، وهو الخطأ حسب ما اتفقنا عليه). وفي هذا النوع يمكن وصف المفكر بأنه مفكر أصيل فعلاً.

أما القسم الآخر وهو ربما الأكثر فإنه يظل تحت الصدمة بشكل أكبر، وقد يدخل فيها الحقيقة الذاتية الزائفة. ومن واقع أنه قدم تلك الأفكار فإنه ينكر الأفكار الأخرى. وهناك نجد خليطاً من صدمة الوجود مع حقيقة ذاتية زائفة. وهذا ربما يسيطر على المفكر فلا ينفك منه. وفي حالة كون الصدمة هي المؤثر الوحيد فإن معايشة أفكار أخرى أو عن طريق المناقشة قد تحول هذا القسم (أو النوع) إلى القسم الأول المتحفظ أو غير المنكر لأفكار أخرى.

ومن هنا نرى أن التعصب للفكرة – حتى لدى المفكر – هو من واقع تلك الصدمة التي مضمونها أن دنياي هي ما عشته، وأنه الصحيح وما عداه فلا.

عموماً نلمس آثار تلك الصدمة في تفسير المفكر لكل الظواهر التي تقع تحت بصره وفق ما عاشه ووجد وجوداً فعلياً بالنسبة إليه. وقد يتعداها في حالة وجود حقيقة ذاتية زائفة منبثقة – كما أسلفنا – من رغبة قد يتعداها إلى التهجم على أصحاب الأفكار الأخرى وتسفيههم. وهذا ما يحصل من تصادم المفكرين بعضهم ببعض، وكل منهم يرى أنه محق وبشكل كبير ويقدم حججه، ولكنها الحجج التي رأى بها ما رأى، أو التي وجدت بها الفكرة وجوداً حقيقياً. ولكنه لا ينظر إلى الحجج الأخرى التي يقدمها الآخر. وحتى لو رآها وغير رأيه، فإنها لا تكون كأفكاره المعاشة. والسبب أن الأفكار الأخرى من المفكر الآخر إنما هي بأبعاد خارجية؛ ومن ثمّ، ليس وجودها حقيقياً. ويظل المفكر لا يرى سوى ما عايشه حتى لو تقبل الأفكار الأخرى.

وإذا كانت المعايشة هي بداية الحرية أو علامتها حيث يرى الفرد بعينيه ويسمع بأذنيه، وباختصار يتفاعل مع العالم ومع نفسه مباشرة بانفتاح ومرونة، فإن هذه المعايشة قد تحمل بداخلها بذور عبودية من نوع آخر خفي وهو التفاعل الآلي مع نتاج المعايشة ومن ضمن ذلك الجمود كما سلف. ويبدو أن الحرية مستويات فبعد كل مستوى حرية تجد مستوى من العبودية ثم مستوى آخر من الحرية وهكذا. بمعنى إذا تمت المعايشة فإن الفرد يتحرر من قيود كثيرة وعدسات كان يرى العالم من خلالها إلا أنه قد يقع في فخ عبودية نضج المعايشة وهذا ما يجعل بعض المعايشين يتسمون بخصائص متشابهة نمطية.

ويبدو أن قمة الحرية أن تعايش المعايشة نفسها فتعلو عليها لتراها حيث إن صعود درجة من سلم يمكنك من رؤية الدرجة السابقة لكن لن ترى الحالية حتى تتجاوزها وهكذا.

عودة لموضوع الجمود لدى المفكرين أو المعايشين، فإنه قد يمتد تأثيره السلبي إلى تلامذة كل مفكر، والذين يقلدون فتنشب الخصومة بينهم. وهذا ما يـــرى دون ذكر أمثلة وفي كل مجال.

نعود ونقول: هذا ربما هو الجانب السلبي الذي يرى لدى المفكر أو حـــتى الفرد العادي عند المعايشة ثم الوجود، علماً أن العيب ليس عيب المفهوم ولكن عيب المفكر أو الفرد المعايش. فالمفكر الأصيل، عندما يعايش فإنه يقول: هـــذا ما عايشته وهذا هو الموجود فعلياً بالنسبة إلي وما أراه، أما الباقي فـــلا أدري فكل شيء محتمل.

وعلى أي حال فإن هذا لا يمنع من أن المعايشة والوجود الحقيقي، تقـــارب في كثير من الأحيان بين المفكرين. فالمفكر لا يقدره فعلاً سوى المفكر الأول، ثم إنه يعلم بالضبط ما يقصده، لذا يقدره التقدير الكبير. وهذا ما يلاحظ بـــين المفكرين كذلك حيث إنه لا يعي أو يعلم الفرد ما يعنيه المفكر إلا إذا عـــايش كما عايش المفكر وعندها قد ينقب ويعدل... إلخ. ويلاحظ بشـــكل أكـــبر تقدير مفكر لآخر، عندما يكون الأول قد ألقى السؤال الـــداخلي وفي آخـــر الطريق وأثناء البحث عن الإجابة والبرهان يجد الإجابة لدى المفكر الآخر مـــع أنه كان على وشك الوصول إليها إلا أن تلك الإجابة ساعدته وبشكل كـــبير (ولا نقصد أن الإجابة هي للمفكر الثاني، بل إن الأول مسها وساعدته الفكرة الجاهزة للمفكر الثاني). هنا نجد التقرير والإكبار لذلك المفكر، ولكن المشكلة أن ذلك التقدير والإكبار قد يتجاوزه إلى التعصب كذلك.

ولكن على أي حال فلا يقدر المفكر إلا المفكر ولا سيما إذا كانت الأفكار المعاشة المشتركة كبيرة، بل إن التقدير مرتبط بعلاقة طردية مع الأفكار المعاشة.

ختاماً نعود إلى ما رددناه كثيراً لتأكيده وبشكل خاص فيما يخص الوجـــود الحقيقي من أن هذا المفهوم سيفتح الطريق إلى كثير من المفاهيم كما سنرى.